الانتماء الوطني
ضرورة فطرية، وحقيقة شرعية

د. عبد الرحمن بن عبيد الرفدي(١)

الملخص

عنوان البحث: الانتماء الوطني ضرورة فطرية وحقيقة شرعية.

أهداف البحث

١. توضيح مفهوم الانتماء الوطني بشِقّيه اللغوي والاصطلاحي.

٢. بيان الظاهرة البشرية للانتماء الوطني.

٣. التعريف بالمستند الشرعي للانتماء الوطني من الكتاب والسنة.

٤. إلقاء الضوء على المواد التنظيمية ذات الصلة بالانتماء الوطني الواردة في القانون السعودي.

٥. بيان التوافق والاختلاف بين الشريعة والانتماء الوطني.

٦. تحديد القِيَم المعززة للانتماء الوطني قدر الإمكان.

منهج البحث: المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي.

(١) الأستاذ بقسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية، جامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز
حاصل على الماجستير من كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، قسم الثقافة الإسلامية، وعنوان الرسالة: أسباب الفهم الخاطئ لتحصيل المعرفة في ضوء الإسلام.
وحاصل على الدكتوراه من كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، قسم الثقافة الإسلامية، وعنوان الرسالة: الانحراف الفكري المعاصر بين الشباب وجهود المملكة العربية السعودية في التصدي له

أهم النتائج

الحاجة إلى تعزيز قيم الانتماء والولاء الوطني ولاسيما في عصرنا الحاضر. والانتماء الوطني يثمر لدى الأفراد سلوكات إيجابية، يظهر من خلالها مدى حبهم لوطنهم، ومدى انتمائهم وولائهم له، مع رفضهم وتباعدهم عن كل فكر هدام. وضرورة تكامل حلقات غرس القيم بما فيها قيمة الانتماء الوطني.

أهم التوصيات

ضرورة إشباع حاجات الفرد المادية والمعنوية لتقوية ارتباط الفرد بوطنه. وضرورة ربط الفرد بالقيم السامية الدينية والخلقية ومحاسن التقاليد والأعراف والعادات، في إطار وسطية الإسلام وعقيدته السمحة. وضرورة إحياء الرجوع إلى الشريعة الإسلامية، ومعرفة مدى مشروعية حب الوطن والانتماء إليه والولاء له. وضرورة تعزيز الثقافة الإسلامية كأساس لبناء الهوية والانتماء الوطني. وضرورة معالجة العوامل المؤدية إلى ضَعف الانتماء الوطني.

الكلمات المفتاحية: الانتماء، الوطن، القِيَم، الولاء.

ABSTRACT

The research deals with an issue rooted in man, but the need for it at the present time is very dire, which is national affiliation, so it was defined, and then talked about in terms of a human phenomenon that imprinted souls on. Many great leaders throughout history have longed for her. The research showed the compatibility between national affiliation and legitimate instructions, by distinguishing affiliation from abhorrent fanaticism, then the research touched on the constitutions' concern for this issue, so articles were devoted to it as is the case in the Basic Law of the Kingdom of Saudi Arabia, Article: nine, twelve, thirteen and thirty-third. This was followed by listing the values that reinforce belonging by clarifying the sources of the values of national belonging, the functions of those values and their impact on society, and the need for them in promoting Islamic culture and addressing the factors that lead to weak belonging. The research concluded with a number of results that were indicated in the conclusion.

المقدمة

العلاقة بين الوطن والإنسان علاقة فطرية، ذلك أن الفرد يرتبط بوطنه، ويعمل من أجله، ويخلص له، ويعمل على تطويره وتقدمه، فيضطلع بواجباته وفق استطاعته.

وإن كان هذا السلوك الانتمائي من أسس حياة الأمم والمجتمعات في أحوالها العادية، فإنها تزداد ضرورةً حين تهيج الفتن، وتموج الأهواء، وتحتاج الشعوب إلى تقوية اللحمة الوطنية، وتقوية الأواصر الجامعة للشتات في وجه كل ما يفت في جدار هذه الوحد، ويهدد هذه الجامعة الوطنية.

لقد شهد القرن الحادي والعشرين تغيرات سريعة في كل مناحي الحياة، ولا سيما التكنولوجيا المتقدمة، وثورة الاتصالات، الأمر الذي نتج عنه تغيرات فكرية وثقافية، بل وقيمية ساهمت في بلورة اتجاهات وسلوكات ومناهج تفكير كان لأكثرها أثر سلبي على تماسك المجتمعات ووحدتها، وتولد لدى الناس شعور بوجود خطر يمس قيمهم وعاداتهم وتراثهم وهويتهم الوطنية، ورافق ذلك ظهور قيم جديدة من شأنها أن تضعف الانتماء الوطني، والتقليل من شأن الوطن(١).

ولا عجب أن تنبُت في الحقبة هذه الزمنية بكل ما حدث فيها من تحولات هائلة نابتة تأثرت بهذا المناخ، فخف انتماؤها وضلت طريقها تحت تأثير الأفكار الوافدة، أو تبني أفكار مغلوطة تهون من شأن الانتماء الوطني في نفوسهم، كان لزاما علينا أن نساهم في تعزيز هذه القيمة وصيانتها، من خلال تأصيلها الشرعي، حتى لا يظن ظان أن الانتماء الوطني يتعارض

(١) انظر: التأصيل الشرعي لمفهوم الوحدة والمواطنة من منظور إسلامي: سلامة بن مخيضير بن مسفر الجحيلي، المجلة العلمية بكلية التربية جامعة أسيوط، العدد: ٣٤، العدد: الثالث، مارس، ٢٠١٨م، ص ١٦٩.

مع أصول الإسلام وتعاليمه، أو أنه يعيدنا إلى تقاليد جاهلية قديمة، وهذا ما دفعني إلى دراسة هذه المشكلة، حتى يكون الشباب على بصيرة من أمرهم، وأن يلتحموا بأوطانهم، ويجتهدون في حمايتها والعمل على سلامتها ورقيها وتقدمها.

ولأن البحث في جانب كبير منه يتعلق بالمنحى الشعوري والعاطفي لدى الأفراد، لذا نحوت في بحثي هذا -خلاف ما سرتُ عليه في بحوثي الأخرى- منحى أدبياً، يستوفي هذه النزعة لدى الإنسان أيًّا كان حاله.

المشكلة البحثية

تعد قضية الانتماء الوطني من القضايا البحثية المعاصرة التي تعرض لها الكتاب والمفكرون من عدة زوايا: شرعية وسياسية وإنسانية، وربما غير ذلك، وتبقى محل اهتمام بحثي دائم لتعلّقها بالإنسان وأمنه ومعاشه وعموم حياته، وتكمن مشكلتها الرئيسة في التوجهات الفكرية التي تدرس هذه القضية، وأهم مشكلة دفعتني للبحث هي: متى يتوافق الانتماء الوطني مع الشريعة ومتى يختلف؟ وما ضرورته الحياتية للإنسان؟ ويتفرع عن ذلك أسئلة أخرى هي:

- ما المفهوم الذي ينبغي ترسيخه للانتماء الوطني؟
- وما المظاهر الفطرية للانتماء الوطني؟
- وما مدى حضور الانتماء الوطني في النصوص القانونية للمملكة العربية السعودية؟
- وما القيم المعززة للانتماء والولاء الوطني؟

أهداف البحث

من شأن أهداف البحث أن تجيب عن التساؤلات الواردة في المشكلة البحثية، ولذا يمكن تحديد الأهداف في الآتي:

١. توضيح مفهوم الانتماء الوطني بشِقّيه اللغوي والاصطلاحي.
٢. بيان الظاهرة البشرية للانتماء الوطني.
٣. التعريف بالمستند الشرعي للانتماء الوطني من الكتاب والسنة.
٤. إلقاء الضوء على المواد التنظيمية ذات الصلة بالانتماء الوطني الواردة في القانون السعودي.
٥. بيان التوافق والاختلاف بين الشريعة والانتماء الوطني.
٦. تحديد القِيَم المعززة للانتماء الوطني قدر الإمكان.

الدراسات السابقة

حينما اعتمدت فكرة البحث؛ شرعت في جمع مادته العلمية، فرأيت كتابات عديدة نشرت في مجلات أو عبر شبكة الانترنت، وقد استفدت من مقالتين هما: ظاهر الانتماء لفيصل عبدالرؤوف فياض، ومقالة الهوية الوطنية والانتماء للدكتور محمد قاسم عبدالله، وبينت ذلك في أثناء البحث، ثم وجدت مقالات أخرى وبحوثاً أنوه إليها في الآتي:

١. بحث الانتماء إلى الوطن وأثره في حماية الشباب من الانحراف، للدكتور بدر علي العبدالقادر[1]، تنبّه في الباحث إلى عدم المصادمة بين الانتماء الوطني والشريعة الإسلامية، وبحث: مفهوم الانتماء في اللغة والاصطلاح، والتأصيل الشرعي للانتماء للوطن: أولاً من القرآن الكريم وثانياً من السنة النبوية والآثار المروية. وفي المبحث الثالث تناول أثر الانتماء إلى الوطن في حماية الشباب من الانحراف. وختم بحثه بعدة

(١) ١. بحث منشور في السجل العلمي لمؤتمر واجب الجامعات السعودية وأثرها في حماية الشباب من الجماعات والأحزاب والانحراف، المقام في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١١-١٢/ ٥/ ١٤٣٩هـ، المجلد الخامس، ص ١٥٥٥-١٥٩٣.

نتائج منها: حث الإسلام على الانتماء للوطن، وأن العلاقة بين الوطن والمواطن فطرية، وأن الوطن شرف لصاحبه، ووجوب تنمية الانتماء.

وفي الحقيقة هناك توافق في عدد الاستدلالات القرآنية والنبوية ولكن هنالك فرق في المعالجة فالظاهر من صنيع الدكتور بدر الاعتماد الكبير على نقل أقوال الأئمة، وقلة التحليل الشخصي، وقد تيسر لي والحمد لله الجمع بين الأمرين في عدد من الاستدلالات. وأما المبحث الثالث فلم يكن محل نظر في قِبَلي هذه دراستي هذه لأنني بحث في قضايا الشباب والانحراف الفكري في بحوث أخرى مستقلة. وبدهي أن تأتي النتائج مختلفة لأنني تناولت موضوعات لم ترد في دراسة الدكتور بدر.

٢. (دورِ إذاعة Amen F.M.) في تعزيز الانتماء الوطني لدى الطلبة الجامعيين- جامعة الشرق الأوسط أنموذجاً[١]، رسالة مقدمة من عبد أحمد حمايل استكمالاً للحصول على الماجستير في الإعلام، وهي دراسة تطبيقية ركزت -بموجب التخصص- على الطرح الإعلامي لبرامج الإذاعة وبخاصة: متابعة هموم الوطن، والإسهام في أهمية الاعتزاز بالوطن ورموزه، والمساهمة في الاحتفال بالأعياد الوطنية، وتشجيع المحافظة على الممتلكات العامة ...الخ. والفارق جليّ وكبير، فدراستي شرعية نظرية استقرائية واستدلالية، بينما هذه إعلامية وتطبيقية، وربما وجدت بعض الأفكار المشتركة مثل: حب الوطن، مبادئ الوسطية والتسامح، ومقومات الوحدة الوطنية، مظاهر الانتماء الوطني وغيرها، ولكنها طرحت في الرسالة من خلال استبانة تجيب عليها الفئة المستهدفة. وأما البحث فتناول هذه الموضوعات وفق منهجه الذي تقدم آنفاً.

٣. مستوى الانتماء الوطني وأساليب تعزيزه لدى عينة من طلاب جامعة الملك عبدالعزيز

(١) منشور على الرابط https://2u.pw/DnCQ4

– دراسة اجتماعية تطبيقية[١]، للدكتورة سهام العزب والدكتورة سحر الجوهري والأستاذة بسمة باجنيد، وهدفت هذه الدراسة إلى التعرف على أهم أساليب تعزيز الانتماء الوطني، والفروق في مستوى الانتماء الوطني، وإمكانية التنبؤ بالانتماء الوطني من خلال أساليب تعزيزه. وهذه أيضاً دراسة تطبيقية واجتماعية، تشترك مع بحثي في جانب التعريف الاصطلاحي للانتماء الوطني، ولكنها أسهبت في استعراض الأقوال ومنازعها، وهو مالم أر له كبير فائدة، فالاختصار وتحديد التعريف الأرجح من وجهة نظري أيسر من هذا. وحينما توجهت دراسة الدكتورة سحر الجوهري وزميلتيها نحو الجانب الاجتماعي حصل التباعد الكبير بينها وبين دراستي.

٤. الانتماء والولاء الوطني في الكتاب والسنة النبوية، بحث للدكتور سميح الكراسنة ود. وليد مساعدة، ود. علي جبران، والأستاذة آلاء الزعبي[٢]، ونبه الباحثون فيه إلى أن أهمية قضية الانتماء الوطني، وتعرضوا لتعريف مفهوم الانتماء والولاء، ثم الانتماء في الكتاب والسنة، ومن خلاله بحثوا المراد بالانتماء الديني بمعنى الأخوة في الإسلام، والانتماء السياسي بمعنى المواطنة والجنسية، ثم بحثوا الولاء في القرآن والسنة، وركزوا على آيات الولاء لله تعالى ولرسوله ﷺ، والولاء الأسري وفق تعبيرهم، وفي المطلب الرابع بحثوا الولاء للوطن، وخلصوا إلى عدة نتائج منها: الانتماء في الفكر السياسي الحديث والمعاصر لا يعترف بما هو خارج حدود الوطن، بينما هو في الإسلام مختلف، وهذا النتيجة فيها شيء من التعارض مع ما ذكروه في استدلالاتهم على الانتماء

(١) مجلة شؤون اجتماعية، العدد ١٥٣، ربيع ٢٠٢٢، السنة ٣٩. ومنشور على الرابط: https://2u.pw/YtKkN .

(٢) المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، ج٦، عدد٣، عام ١٤٣١هـ ص٤٩-٧٢.

السياسي. والنتيجة الثاني هي أن الإسلام رسالة عالمية، وبناء عليه فالذين يحافظون على السلام من غير المسلمين هم والمسلمون إخوان في الإنسانية، وهذه نتيجة فيها نظر، فقد أثبت الواقع ومجريات الأحداث أن تلك المسالمة مؤقتة، ولا يمكن الاعتماد عليها عند الأزمات حيث يظهر الانتماء الطائفي والعقدي بأوضح صُوَره.

والفارق أن دراسة الكراسنة ورفاقه هذه فصلت بين الانتماء والولاء ودرستهما على نحو منفصل، وهو ما أجده ضرورياً بالنظر إلى الحقيقة والمؤدّى. يضاف إلى ذلك عدم اقتناعي ببعض استدلالاتهم كاستدلالهم على الانتماء السياسي بقوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢] وهو استدلال فيه نظر؛ فالمانع الميثاق وليس الانتماء السياسي والله أعلم. كما أن نتيجتي بحث الكراسنة وزملائه أجدها خارج إطار الموضوع، مع ما ظهر لي من تناقضها مع ما تم طرحه في متن البحث. بالإضافة إلى أنني اعتنيت بقيم الانتماء الوطني، وهو ما لم يظهر لي في دراستهم.

٥. الانتماء الوطني رؤية شرعية[1]، مقالة لسالم بن عميران، تناول فيها باقتضاب شديد تعريف الانتماء الوطني، ثم المشروعية من خلال الاستدلال بآيتين كريمتين وحديثين شريفين، وفي الاستدلال بالآيات نظر وبخاصة آية سورة غافر رقم ٦٤، فهي عامة في تسخير الله تعالى ما في الأرض للإنسان. وعموماً ليس هنالك استفادة تذكر من هذه المقالة، حتى وإن كان هناك اشتراك في فكرة العنوان، فالطرح فيها مختلف جذرياً عما هو في الدراسة التي بين أيدينا.

(١) مجلة البيان، العدد ٣٣٨ شوال ١٤٣٦هـ، أغسطس، ٢٠١٥م، منشورة على الرابط: https://2u.pw/sEwY8 .

٦. بحث عن الانتماء للوطن[١]، مقالة لبشار طميزي بحدود صفحة واحدة، ولا يصدق عليه مسمى (بحث) إنما هو أفكار صاغها الكاتب في نقاط، ولذا لم يكن مفيداً أكاديمياً، خصوصاً وأنه لم يوثق أي معلومة أوردها.

منهج البحث

بالنظر إلى طبيعة موضوع البحث ومقتضياته فقد اعتمدت المنهجين: الاستقرائي والتحليلي.

التمهيد: يجدر بنا بين يدي البحث أن نتناول تعريف مصطلحات العنوان، وبخاصة: الانتماء والوطن، وفق الآتي:

أولاً: الانتماء لغة واصطلاحاً

ذكرت معاجم اللغة أن الانتماء مصدر جذره اللغوي (نمى، ينمي)، ومن معانيه: الإبلاغ كقولهم: نمى خيراً. والارتفاع كقولهم: نمى الماء. والزيادة كقولهم: نمّى النار. والاعتزاء والانتساب كقولهم: انتمى فلان إلى فلان[٢]، وترجع هذه المعاني -كما قال ابن فارس- إلى أصل واحد هو الارتفاع والزيادة[٣].

ويمكن تعريف الانتماء اصطلاحاً بأنه: "الانتساب الحقيقي إلى أمر معين فكراً، وتجسّده الجوارح عملاً"[٤].

(١) منشورة على الرابط https://2u.pw/cbWGZ

(٢) تهذيب اللغة: الأزهري، ٣/ ٦٣ ، ١٥/ ٣٧١. وتاج العروس للزبيدي ٤/ ١٣٣ مادة (نمى).

(٣) انظر: مقاييس اللغة: ابن فارس، ٥/ ٤٧٩.

(٤) الانتماء والولاء للوطن للكراسنة وآخرين، بحث منشور في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، ج٦، عدد٣، عام ١٤٣١هـ، ص٥١.

ثانيًا: الوطن لغة واصطلاحاً

ذكرت المعاجم العربية أن الوطن هو موطن الإنسان ومحله. يقال: أوْطَن فلان أرض كذا، أي: اتخذها محلًا ومسكنًا يقيم بها، والموطن: كل مكان قام به الإنسان لأمر(١).

وقد ورد في تعريفه اصطلاحاً عدة أقوال، منها:

قول الجرجاني: "الوطن الأصلي: هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه"(٢). ولعل فيه نقصاً، إذ إن سلامة التعريف تقتضي إضافة كلمة (مكان)، ليصبح التعريف: هو مكان مولد الرجل...الخ.

وقال الفقهاء: "الوَطَن: منزل إقامة الإنسان ومقرّه وُلِدَ به أو لم يُولد"(٣).

ولكل تعريف منهما منزع، فالجرجاني يلمح قضية المولد والنشأة، بينما تعريف البركتي لا يعتد بهذا الأمر، وإنما ينزع إلى مكان الاستقرار والإقامة، ولعل ذلك لما يترتب عليه من أحكام فقهية، وبخاصة قصر الصلاة وجمعها. وإلى هذا مال الكفوي في تعريف الوطن(٤). ويأتي طرح وزارة الداخلية الألمانية متقارباً مع هذا المعنى، فهي ترى أن الوطن يكون "حيثما يشعر الأفراد بالراحة والقبول والطمأنينة، إلى جانب إعطاء الأفراد توجهًا قويًّا لتجاوز تحديات الحياة والتطلع إلى الأمام"(٥).

إلا أن الأمر يتطلب نظرين مختلفين: الأول باتجاه الواقع والإجراءات المعتمدة لدى الدول في مجال الأحوال المدنية، فإنها تحدد الوطن بمكان المولد والجنسية. والثاني باتجاه

(١) انظر: كتاب العين: الفراهيدي، مادة (وطن)، ٧/ ٤٥٤.
(٢) التعريفات، الجرجاني، ص٢٥٣.
(٣) التعريفات الفقهية، البركتي، ص٢٣٨.
(٤) الكليات، الكفوي، ص٩٤٠.
(٥) انظر الرابط: https://2u.pw/e63pu .

الأفراد، فإن موطنه هو مكان نشأته؛ لأن الارتباط العاطفي بالمكان ناتج عن النشأة والمعايشة، ولا يتأتى من مجرد المولد.

ثالثًا: الانتماء الوطني اصطلاحًا

هنالك العديد من التعريفات للانتماء الوطني، أذكر بعضًا منها في الآتي، مع شيء من المناقشة:

أحدها تعريف د. محمد عبدالله بأنه: "الانتساب لكيان ما، يكون الفرد متوحداً معه، مندمجاً فيه بصفته عضواً مقبولاً، وله شرف الانتساب إليه، ويشعر فيه بالأمان"(١).

وعُرِّف أيضاً بأنه: "اتجاه إيجابي مدعم بالحب والتضحية، يستشعره الفرد تجاه وطنه، بحيث يشعر نحوه بالفخر والولاء والاعتزاز بهويته"(٢).

ووقفت على عدة تعريفات أخرى، فوجدت أنها سردية، أقرب للشرح منه للتعريف الاصطلاحي، ولكنها في مجموعها تدور حول ما يأتي:

- فرد ينتمي إلى كيان.
- كيان قائم متكامل العناصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإنسانية.
- شعور إيجابي من الفرد تجاه هذا الكيان.
- تصرفٌ إيجابي من الفرد تجاه هذا الكيان.

وعليه فإن الانتماء الوطني يمكن أن يوصف إجمالاً بأنه ارتباط وجداني بين الفرد ومسقط رأسه أو محلّ نشأته، يدفع به لاتخاذ أعمال إيجابية معنوية كالشعور بالاعتزاز والانتماء

(١) الهوية الوطنية والانتماء، د. محمد قاسم عبدالله، ص ٥.

(٢) مستوى الانتماء للوطن والرضا عن الحياة لدى طلبة الجامعة، للدكتور وليد أبوالمعاطي والدكتورة منار أحمد، بحث منشور في مجلة البحث العلمي في التربية، العدد ١٩، عام ٢٠١٨. ص ٥٦٩.

والرضا، ومادي بالإسهام في نهضته وتطوّره وارتقائه على كافة الصعد الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

إن الانتماء الوطني منزع وجداني يربط الإنسان بمكان مولده أو موطن نشأته وصباه، ويشعر بالارتياح وهو في مرابعه، ويحنّ إليه إذا فارقه وابتعد عنه، ولا يزال يحدث نفسه بالعودة والرجوع إليه، وبخاصة إذا كان ذلك الموطن ينعم بالاستقرار والأمان؛ ولذا نجد الدول ومؤسسات المجتمع التربوية فيها تحرص على غرسه قيمة الانتماء الوطني في نفوس أبناء الوطن وبناته منذ نعومة أظفارهم بحيث يشبوا عن الطوق، وقد امتلأت قلوبهم وأرواحهم بحب وطنهم.

وتجدر الإشارة إلى أن حب الوطن درجة عالية ناشئة عن انتماءات متقدمة عليه لدى الإنسان نفسه، ذلك أن المرءَ يعرف قدر نفسه، ويحرص على سلامتها، فتأخذ منه المرحلة الأولى من الانتماء، ويتجلى ذلك في العمل على تنمية مهاراته وقدراته، وإثبات نجاحه وتفوقه، على أساس أن هذا الاعتبار والتفوق وسيلة مثلى للتواصل مع الآخرين، ومن ثَم ينطلق منه إلى الانتماء الأسري، فيعمل على تعزيزه من خلال الترابط العائلي، وإذكاء أواصر المحبة والمودة بين كافة أفراد الأسرة، وهي بدورها تعد بداية الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية، ثم تأتي المرحلة العليا المتمثلة في الانتماء الوطني من خلال ما يُكنّ تجاهه من محبة واعتزاز[1].

(١) انظر: التأصيل الشرعي لمفهوم الوحدة والمواطنة من منظور إسلامي: سلامة بن مخيضير الحجيلي، ص١٦٩.

المبحث الأول

الانتماء الوطني ظاهرة بشرية

محبة الوطن طبيعة طبَع الله النفوس عليها، ولا يخرج الإنسان من وطنه إلا إذا اضطرته أمور للخروج منه، وهذا يدل على تأثير الأرض في ساكنيها، وعلى أن طبيعة الإنسان التي طبعه الله عليها حب الوطن والديار، فالوطن كالأم؛ محبة وعطاء، وهو الأمن والأمان؛ وفي نسيمه عبير الحرية، وهو رمز الكرامة، وإن العلاقة بين الفرد ووطنه علاقة تمتد جذورها في الوِجدان والعاطفة، فكلاهما بحاجة إلى الآخر؛ المواطن بحاجة إلى وطن يقدم له الحماية، ويصون له حقوقه المدنية والسياسية والاجتماعية، والوطن بحاجة إلى مواطنين يدافعون عنه ويحمونه ممن يريدون به سوءًا، هذه العلاقة الجدلية إذا أخذت مسارها الصحيح، تجعل المواطن مهما كانت مشاربه وتوجُّهاته الفكرية والثقافية والسياسية، مستعدًّا بالفطرة للدفاع عن وطنه.

ويظهر هذا الانتماء في شكل أنماط من السلوك الإيجابي الدالة على تعلق الفرد بموطنه، وهو كذلك سلوك بشري فطري، إلا أن غياب هذين السلوكين يدل على ضعف ارتباط الفرد بوطنه[1] ومن ثم تثاقله عن القيام بتبعات ذلك الانتماء من إخلاص وإتقان وحِماية ونحو ذلك، نظراً لفقدان الباعث على ذلك.

وتتبدى ملامح ظاهر الانتماء الوطني البشرية من خلال الآتي:

أولاً: الجبلة البشرية وحب الوطن

إن محبة الأسرة أو القبيلة أو الوطن والانتماء لهذه الكيانات الاجتماعية، ثم الانتماء إلى

(١) انظر: ظاهرة الانتماء: فيصل عبد الرؤوف فياض، الرابط: https://www.amad.ps/ar/post/18485

الأمة بأسرها، أمرٌ جبلي، وطبيعة طبع الله النفوس عليها، فحين يولد الإنسان بأرض، وينشأ فيها، فيشرب ماءها، ويتنفس هواءها، ويحيا بين أهلها، فإن فطرته تربطه بها، فيحبها، ويحب من يحبها، ويوالي من يواليها، ويبغض من يبغضها.

ورحم الله عبدالرحمن بن خلدون(١) وغيره من علماء الاجتماع الذين قرروا أن الإنسان خلق مدنيًا بطبعه. وهي عندهم كناية عن الاجتماع البشريّ. ومعنى هذا القول صعوبة حياة الإنسان منفرداً، وأن وجوده الفعلي المؤثر لا يتمّ إلّا مع أبناء جنسه. فالإنسان محتاج إلى مدينة فيها خلق كثير؛ لتتكامل عناصر الحياة الإنسانية الاجتماعية(٢)؛ لذا فالحاجة إلى الانتماء إلى مجتمع بشري في بقعة من الأرض حاجة ملازمة لكل فرد من بني آدم.

ومما يدعم هذا الأمر ما توصلت إليه بحوث ودراسات علم النفس المعاصر من أن الحاجة إلى الانتماء والحب في المرتبة الثالثة في تصنيف (ماسلو) للحاجات؛ الذي حظي بمكانة كبيرة بين علماء النفس، حيث قدم تصورًا هرميًّا للحاجات، فجعل قاعدة الهرم للحاجات الفسيولوجية الضرورية للحياة الجوع والعطش والهواء والجنس وغيرها، ولا بد من إشباعها، ومن بعدها الحاجة إلى الأمن والسلامة، ثم الحاجة إلى الانتماء والحب، ثم الحاجة إلى التقدير ثم الحاجة إلى المعرفة، ثم الحاجة إلى تحقيق الذات في قمة الهرم. وأطلق

(١) هو أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون الحضرمي الإشبيلي، كان على صلة بالمستنصر بالله الموحّدي أبي بكر الحفصي وغيره، استقر بالمغرب، وأطال التنقل بين المغرب (بلاد إفريقية) والأندلس، كان موسوعي المعرفة وبخاصة في مجال التاريخ وعلم الاجتماع، ثم استوطن مصر وتولى قضاء المالكية، وتوفي بالقاهرة عام ٨٠٨هـ. [انظر: أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن لابن الأحمر، ص٢٩٧. نيل الابتهاج أبي العباس التكروري، ص٢٥٠].

(٢) انظر: الصداقة والصديق: أبو حيان التوحيدي، ص ١٦١. وتهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: ابن مسكويه، ص٣٨.

على الحاجات الأربع الأولي الحاجات الدنيا؛ لأنها تسيطر إذا حرم الفرد من إشباعها. أما حاجات القمة فهي الحاجات العليا؛ وهى حاجات إثرائية(١).

وقد اتفق مع ماسلو وغيره (ويليام جلاسر) في تصنيف هذه الحاجات وبيان أهمية الحاجة إلى الانتماء في تعزيز قيم المواطنة، و ذهب إلى أن الحاجة إلى الانتماء تأتي في المرتبة الثانية من بين مراتب الحاجات الخمسة وفقاً لنموذجه، وتتمثل في الحاجة إلى الآخرين والتعاون معهم والحبّ والانتماء للمجتمع(٢).

وقد أكدت بعض الدراسات على أثر البيئة التي تشبع حاجات الطفل الأساسية من الحب والاحترام والتقدير في تعزيز قيم الانتماء والمواطنة، فقد توصلت بعضها إلى وجود علاقة ارتباطية إيجابية بين أساليب المعاملة الوالدية السوية وبين الانتماء الوطني، وعلاقة ارتباطية سلبية بين الأساليب غير السوية (كالتفرقة واضطراب الشخصية وتذبذها ومدى التحكم والسيطرة من الوالدين) وبين الانتماء الوطني، وأشارت في نتائجها إلى الدور المهم لأساليب المعاملة الوالدية القائمة على الحب والاحترام والتقدير في تنشئة الأطفال على الانتماء للوطن(٣).

(١) انظر: الصحة النفسية والإرشاد النفسي: الطواب، ص١٢٠-١٢١.

(٢) انظر: العلاقة بين إدارة الصف وفقًا لنموذج جلاسر والاتجاهات نحو تعلم اللغة الإنجليزية لدى طلاب المرحلة المتوسطة بمدينة حائل بالمملكة العربية السعودية: سلطان بن سليمان فالح العنزي، العلوم التربوية، العدد الأول، ج٢، يناير ٢٠١٧، ص٢١٠.

(٣) انظر: إسهام أساليب المعاملة الوالدية كما يدركها الأبناء في التنبؤ بالانتماء الوطني لدى طلاب الجامعة: طه أحمد المستكاوي، ودينا سالم سليمان، وسارة مصطفى علي، مجلة دراسات في مجال الإرشاد النفسي والتربوي، كلية التربية، جامعة أسيوط، المجلد الثامن – العدد الثامن – يناير ٢٠٢٠م، ص٦٢.

ثانياً: حب الوطن ضرورة حياتية

إن إحدى علل نزوعنا الوجداني إلى الوطن هي الذكريات الجميلة التي صاحبتنا منذ طفولتنا، حيث ارتسمت في مخيلتنا، وداعبت أعماق قلوبنا وأرواحنا ودواخل نفوسنا، وهذا هو الأصل والمعتاد لدى كل إنسان ما لم يطرأ عليه طارئ يفسد فطرته، أو إشكال ينفّر الإنسان عن وطنه، كما هو حال الأندلس بعد سقوطها، فصار العيش فيها غير ممكن، فلا أمن ولا كرامة، الأمر الذي يدفع الإنسان للبحث عن موطن آخر يستقر فيه، ولعل هجرة النبي ﷺ ومؤمني مكة المكرمة في صدر الإسلام كانت من هذا القبيل، حيث تركوا مكة لأن العيش فيها لا يطاق، واستقروا بالمدينة المنورة وصارت لهم وطنا وملاذا.

ثالثاً: الانتماء إلى الوطن والحنين إليه في أدبيات الأمم وكلماتهم وأفعالهم

إن حب الوطن، والاعتزاز بالانتماء إليه -كما أسلفنا- جِبِلّة في الإنسان، وشعور لا يكاد يخلو منه إنسان، عدا من كان في فطرته إشكال، أو جرت عليه أحداث غير معتادة؛ ولأن الانتماء الوطني هو الأغلب في واقع الإنسان وحياته العملية؛ لذا وجدنا له صدى في أعماله الأدبية والتاريخية، ويزداد دفء التعبير إذا أقْصِي الإنسان عن موطنه وهو به متعلق وله محبّ، وفيما يأتي طائفة من الأقوال والخطابات المعبرة عن حب الوطن والانتماء إليه أو الاشتياق له:

١. حنين النبي يوسف عليه السلام لموطنه

يذكر الزمخشري[1] عن نبي الله يوسف بن يعقوب عليه السلام أنه لما حضرته الوفاة

(١) الزمخشري: محمود بن عمر الخوارزمي النحوي، صاحب الكشاف والمفصّل، قال الذهبي: "العلامة، كبير المعتزلة ... كان رأساً في البلاغة والعربية والمعاني والبيان... وكان علامة نسابة، جاور مدة حتى هبت على كلامه رياح البادية، مات ليلة عرفة، سنة ٥٣٨هـ" انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠/ ١٥١.

"أوصى بحمل رِمَّتِه[١] إلى مقابر آبائه؛ فمنع أهل مصر أولياءه، فلما بعث موسى وأهلك فرعون حملها إلى مقابرهم؛ فقبر يوسف علم بأرض بقرية تسمى حسامى"[٢]، وهي في فلسطين، من أعمال بيت المقدس.

٢. حنين بعض القياصرة والملوك إلى أوطانهم

القياصرة والأكاسرة والملوك هم قادة الأمم، وينتظر أن جميع مظاهر السعادة الدنيوية متحصلة لديهم، وفيها من الوفرة ما يغنيهم عن قضايا الانتماء وغيره، إلا أن الفطرة تبقى حاضرة أيًّا ما كان حال الإنسان:

فإسفنديار بن يستاف[٣] أحد أكاسرة الفرس يتذكر موطنه (بَلْخ) حينما اعتل وهو خارج للغزو، فلما قيل له: "ما تشتهي؟

قال: شمةً من تربة بلخٍ، وشربةً من ماءِ واديها"[٤].

واعتل الملك سابور ذو الأكتاف[٥] وكان أسيراً لدى الروم، فقالت له بنت الملك -وقد عشقته-: "ما تشتهي؟

قال: شربة من ماء دجلة، وشميمًا من تراب إصطخر. فأتته بعد أيام بماء وقبضة من تراب، وقالت: هذا من ماء دجلة، ومن تربة أرضك، فشرب، واشتم بالوهم، فنَقُهَ من علته"[٦].

(١) الرِّمَّة هي: العظام البالية. انظر: تاج العروس للزبيدي ٣٢/ ٢٨٢ مادة (رمم). وبما أن الأنبياء لا تبلى أجسادهم، فالرِّمَّة هنا كناية عن الجسد، هذا إذا صحّ الخبر.
(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، للزمخشري ١/ ٣٠١.
(٣) هو إسْفنديار بن يستاسف بن هُوَاسف، أحد ملوك الفرس. انظر: رسائل الجاحظ، ٢/ ٤٠.
(٤) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، للزمخشري ١/ ٣٠١.
(٥) سابور ذو الأكتاف، أحد ملوك فارس. انظر: المحبر: الهاشمي، ص ٣٦١.
(٦) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، للزمخشري ١/ ٣٠١.

ويذكر أيضا أن الإسكندر المقدوني[١] لما أشرف على الموت أوصى أن تحمل رُمَّته في تابوت من ذهب إلى بلد الروم، حبا لوطنه[٢].

٣. الانتماء الوطني في الشعر العربي

وبما أن الشعر ديوان العرب؛ فقد أودعه فحول الشعراء أحاسيسهم، وسجّلوا من خلاله الكثير مما تجيش به أنفسهم، وبخاصة ما يتعلق بالأوطان ومحبتها والحنين إليها، ونكتفي من ذلك بثلاثة نماذج هي:

قول امرئ القيس[٣]:

قِفا نبكِ، من ذِكرى حبيبٍ، ومنزلِ ... بسِقطِ اللّوى بينَ الدَّخولِ، فَحَوْمَلِ
فتُوضِحَ فالْمِقراةِ لم يَعْفُ رَسْمُها ... لما نَسَجَتْها من جنوبٍ وشَمْأَلِ

يقول النقاد: إن امرأ القيس هو أول من وقف على الديار وتغنى بالحنين إليها[٤].

ولبيد بن ربيعة العامري، الذي اشتد حنيه إلى وطنه، فقال متحسراً على فراقه[٥]:

بَكَتْنَا أَرْضُنَا لَمَّا ظَعَنَّا ... وَحَيَّتْنَا سُفَيْرَةُ وَالْغَيَامُ

كما سجل جرير بن عطية الخطفي أحاسيسه تجاه موطنه فقال:

(١) هو الإسكندر بن فيلفوس، الملك الذي حكم اليونان وغيرها. انظر: تاريخ الطبري، ١/ ٥٧٣.
(٢) انظر: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار: للزمخشري ١/ ٣٠١-٣٠٢.
(٣) ديوان امرئ القيس، ص١٤.
(٤) شرح المعلقات السبع: الزوزني، ص٣٦.
(٥) سُفَيْرَةُ والغَيَامُ: هضبتان، كان بنو جعفر قد فارقوا قومهم فى شأن قتل منيع بن عروة لمرّة بن طريف، وصاروا بالشام، فدلّ ذلك أنّ هاتين الهضبتين بالشام. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: البكري، أ٣/ ١٠١٠.

حيِّ المنازلَ إِذْ لا نَبْتَغِي بَدَلًا بِالدَّارِ دَارًا وَلَا الجِيرَانِ جِيرَانًا[1]

حيث عبر عن شوقه إلى وطنه ومنازل أهله، مؤكداً أن هذا الوطن لا يعدله في قلبه أي وطن آخر.

(١) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، ١/ ١٦٠.

المبحث الثاني

الانتماء الوطني في الإسلام

يخلط بعض الناس بين الانتماء الوطني والعصبية، ولعل ذلك ناشئ عما يلحظ لدى فئات من الناس يبنون انتماءهم على أساس العصبية، والتعزي بعزاء الجاهلية المنهيّ عنه في الإسلام.

إلا أن الدارس المسلم ينبغي له التدقيق والتمحيص، ومن ثم التفريق بين الانتماء الوطني المشروع، والعصبية المقيتة التي قال عنها رسول الله ﷺ: "دعوها فإنها منتنة"(١)، فشتان بين الأمرين، الأول مشروع موافق للفِطر السليمة، والآخر منهيّ عنه في دين الله، وفيما يأتي تفصيل لمشروعية الانتماء الوطني:

أولاً: الانتماء الوطني في القرآن الكريم

ربما يقال: إن مصطلح الانتماء الوطني معاصر، لم يُعهد في عصور السلف، فيقال: إن المصطلحات تتكون وتتكامل دلالاتها وفقاً للمستجدات والمعطيات المعرفية والثقافية، ولا يعني ذلك عدم مشروعية حقيقتها، وفيما يأتي عرض لنصوص قرآنية كريمة دلت على مشروعية الانتماء الوطني تصريحاً أو من باب الإشارة والإيماء:

١. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

وبالتأمل في الآية الكريمة نجدها تتحدث عن أمرين شاقين جداً على الإنسان: قتل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، سورة المنافقون باب ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ٦/ ١٥٤، برقم ٤٩٠٥.

النفس، والخروج من الديار، ولا يفعلها طاعة لله تعالى إلا القليل[١]، ولعله من دلالات اقتران الخروج من الديار بقتل النفس الاتحاد في الجانب الروحي، فهي روح الإنسان تخرج من الجسد، أو تخرج من الديار، ولو كان أمراً يسيراً لما اقتصر فعله على القليل كما صرحت الآية الكريمة بذلك، ومشقة الإخراج يمكن تصورها في ما قبل الإخراج حيث إنه ينشأ عن معادة وتضييق ومحاربة على الأغلب، ومشقة في الإخراج نفسه الذي يُشَبّه بخروج الروح من الجسد، ويضاف إلى ذلك تبعات الإخراج من ترك الأهل والمسكن والأموال والبدء بمرحلة حياة جديدة فيها الكثير من التعب والجهد كما في حالة المهاجرين رضوان الله عليهم.

٢. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩]، ونلمح في هذه الآية الكريمة ارتباط بين القتال والإخراج من الديار، والجامع بينهما الأهمية القصوى للروح وللدار، والآية صريحة في أن الذين فعلوا ذلك مع المؤمنين وهم مشركو مكة تجب مقاطعتهم، فلا تجوز موالاتهم بالمودة أو النصرة لا بالقول ولا بالفعل. ويزداد التشديد في الآية الكريمة تجاه هؤلاء المقاتَلين والمخرَجين بِعَدِّ من يواليهم ظالماً، قال السعدي: "وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان توليًا تامًّا، صار ذلك كفرًا مخرجًا عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك"[٢].

ويمكن استنباط مشروعية الانتماء الوطني في هاتين الآيتين من دلالة مشقة الإخراج الذي تم التنويه إليه حقيقته وتبعاته في آية النساء، وهي منافية للتوجيهات الشرعية التي

(١) انظر: تفسير السعدي، ص١٨٥.
(٢) تفسير السعدي، ص٨٥٦.

يسرت على الإنسان وشرعت له ما يدفع عنه الأذى والظلم وما لا يُطاق، وكذا دلالة تحريم الموالاة في آية الممتحنة، وعليه فإن ارتباط الإنسان بوطنه واستقراره فيه مقصد ترعاه الشريعة، وتعاقب من يعتدي عليه.

٣. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، فقد نزلت هذه الآية -كما في صحيح البخاري- على النبي ﷺ في الحجة في أثناء الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة، وفسّرها ابن عباس وعدد من التابعين بالرجوع إلى مكة المكرمة، موطن النبي ﷺ ومكان مولده(١).

وبهذا التفسير وهذا السياق يبدو أن الآية الكريمة نزلت تسلية للنبي ﷺ وتثبيتاً مع الوعد الضمني بانتشار الإسلام ودخول الناس فيها أفواجاً، ذلك أنه في حال الهجرة ساورته ﷺ مشاعر حب الوطن ومرابع المولد والنشأة، وهي مشاعر فطرية، جالت بخاطر النبي صل الله عليه وسلم، دون أن يكون لها أدنى تأثير في مواصلة الدعوة وتنفيذ أمر الله تعالى بالهجرة، فكان من إكرام الله تعالى وتثبيته هذا الوعد الكريم بدخول مكة فاتحاً، وليس عائداً للسكنى فيها.

٤. آيات كريمة واردة في الصبر كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢]، وقد ذكر العلماء عدة معان للصبر هنا أبرزها: صبر الصحابة على مفارقة الوطن الذي هو حَرَم الله تعالى مكة المكرمة، قال النسفي: "أي صبروا على مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله"(٢)، ويتناسب هذا التفسير مع سياق الآية قبلها

(١) انظر: معاني القرآن للفراء، ٢/ ٣١٣.
(٢) تفسير النسفي ٢/ ٢١٤. وانظر: تفسير الرازي ٢٠/ ٢١٠، وتفسير ابن كثير ٤/ ٥٧٢.

وهي قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١]، ويلمح في سياق الآيتين الكريمتين تنبيه إلى أن الإخراج من الوطن اعتداء عظيم على الإنسان وظلم شديد له، ويشتد الظلم حينما يصاحبه التعذيب والإساءة إلى دين المسلم كما حصل مع الصحابة الكرام الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم، أو الصحابة الكرام الخمسة: صهيب وبلال وعمار بن ياسر وخباب بن الأرت ومولى ابن خلف الجمحي، أخِذوا بعد أن هاجر رسول الله ﷺ، فعذبهم المشركون بمكة على أن يكفروا، ولكنهم آثروا الخروج والهجرة إلى المدينة المنورة واحتالوا لذلك حرصاً على إيمانهم(١).

وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، فقد جعل عدد من المفسّرين الإخراج من الديار نوعًا من الفتنة، قال الألوسي: "... أو المحنة التي يفتتن بها الإنسان، كالإخراج من الوطن المحبب للطباع السليمة أصعب من القتل؛ لدوام تعبها وتألم النفس بها، ومن هنا قيل:

لقتل بحد سيف أهون موقعا ... على النفس من قتلٍ بحد فِراق"(٢)

ثانياً: الانتماء الوطني في السنة النبوية والسيرة

إن من يتأمل سنة النبي ﷺ ينكشف له بجلاء كيف أن حب الوطن طبع بشري، والبقاء فيه سنة في بني آدم، والانتماء إليه فطرة سليمة ما لم يتعارض ذلك مع ثوابت الإسلام، ومن مشاهد حب الأوطان في السنة النبوية ما أوردته مصادر السنة النبوية المشرفة والسيرة أن

(١) انظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٦٥.

(٢) روح المعاني للألوسى ١/ ٤٧١. وانظر: الكشاف للزمخشري ١/ ٢٣٦. وتفسير الرازي ٥/ ٢٠٩. ولم أهتد إلى قائل البيت.

النبي ﷺ صرح بحبه لمكة المكرمة ثلاث مرات:

الأولى: حين خروجه من مكة المكرمة، فالنبي ﷺ كما سَلَف سبق له أن عرف من ورقة بن نوفل أنه سيُخرج من مكة، ولكنه ما كان ليفعل ذلك إلا بأمر من الله تعالى، والمتأمل في مسيرة الدعوة في المرحلة المكيّة يلحظ أن النبي ﷺ -رغم حبه الشديد لمكة المكرمة- إلا أنه قدّم ورجّح مصلحة الدعوة، فعرض على القبائل أن يؤمنوا بدعوته وأن يحملوه معهم ويحمونه ليقوم بواجبها، وخرج بنفسه ﷺإلى الطائف للغرض ذاته[1]. ولم يُقلّل ذلك كله من حبه لمكة المكرمة، بدليل أنه ﷺلـمّا أُذِن له بالهجرة إلى المدينة المنورة، ومع أولى خطوات الهجرة مع صاحبه الصديق أبي بكر ﷺ؛ وقف على أَكَمَة قرب دار الأرقم بن أبي الأرقم يقال لها الحزورة ونظر إلى مكة مودّعاً وقال: "مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ"[2]. وفي هذا الحديث الشريف -والله أعلم- فائدتان:

أولاهما: أن المسلم المخلص يحرص على خير وطنه ومصلحته، والمصلحة هنا تتمثل في اهتداء أهل مكة واتباعهم النبي ﷺ واعتناقهم الإسلام؛ لذا كان ﷺ حريصاً جداً على ذلك فصبر على أذاهم، وبذل لهم النصيحة مراراً وتكراراً، ولكن الهداية بيد الله تعالى.

والآخرة: أن الفطرة السليمة يمكنها الجمع بين الانتماء الوطني والمصلحة الشرعية، وعليه فإن مفارقة الوطن لا تقلل من شأن الانتماء، ولكنها متطلبات الدعوة كما

(١) انظر: السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ١٤٩ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل مكة ٥/ ٧٢٣، برقم: ٣٩٢٦، وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه".

هو شأن النبي ﷺ، أو متطلبات الحياة كما هو حال الكثير من الناس الساعين في طلب الرزق أو طلب العِلم ونحو ذلك.

الثانية: بالمدينة المنورة حينما وُعِك عدد من الصحابة بحُمّى المدينة، وردّدوا الأشعار في اشتياقهم لمكة المكرمة، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وعك أبو بكر، وبلال، قالت: فدخلت عليهما، فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كلُّ امرئٍ مصبِّحٌ في أهلِهِ والموتُ أدنَى مِنْ شِراكِ نعلِهِ

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته[1]، ويقول:

ألا ليتَ شعري هلْ أبيتَنَّ ليلةً بفجّ وحولي إِذْخِرٌ وجَليلُ[2]

وهلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ[3] وَهلْ يَبْدُوَنْ لي شامةٌ وطَفِيلُ[4]

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: "اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد وصَحِّحْها وبارك لنا في صاعها ومُدّها، وانقل حُمّاها فاجعلها بالجحفة"[5]. وفي بعض

(١) عقيرته: صوته. انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس: ابن الأنباري، أب ٢/ ٥٣.

(٢) الإذخر -بكسر الأول والثالث- نبت ضعيف يجعل في الأشنان، له أصل مندفن، يحشى في مخاد الأُدم وبراذع الدواب، ويسد به أخصاص البيت، وله رائحة طيبة، إذا طحن وخلط مع الأشنان، لطيب رائحته. والجليل: هو الثمام نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت انظر: تصحيح الفصيح وشرحه: ابن درستويه، ص٣٠٥. وانظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري، أبو٤/ ١٦٥٩.

(٣) اسم سوق للعرب كان في الجاهلية وكان ذو المجاز ومجنّة وعكاظ أسواقا في الجاهلية، قال الأصمعي: وكانت مجنة بمرّ الظهران قرب جبل يقال له الأصفر، وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها. انظر: معجم البلدان، الحموي، ٥/ ٥٨.

(٤) جبلان قرب مكة على موضع أميال منها. انظر: معجم البلدان: ٢/ ٣١٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة ٥/ ٦٦، برقم: ٣٩٢٦.

الروايات أن بلالاً ﷺ كان بعد أن يتمثل بالبيتين الآنفين يقول: "اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء"(١).

وهنا تصريح من النبي ﷺ بحبه لمكة المكرمة، ولكن الله تعالى ألقى في قلبه حب المدينة المنورة أكثر فدعا بذلك، كما أن كلمات بلال ﷺ تدل على اشتياقه لأحياء مكة التي ألِفها ونشأ بها، ويزيد على ذلك بلعن من كان سبباً في خروجهم، وفيه مؤشّر على تمكّن حب مكة من قَلْبه، ذلك الوطن الذي دَرج فيه ونشَأ، ولكن ببركة دُعاء النبي ﷺ بالإضافة إلى عِظَم ثواب الهجرة جعلهم لا يفكّرون بالعودة إليها وسكناها بعد الفتح، وليس ذلك من قِلة الحب والاشتياق، وإنما تفضيل للأجر والثواب وتمام الهجرة.

الثالثة: حينما وصف أصيل الغفاري ﷺ مكة وأثنى عليها، ففي الحديث أنه قدم المدينة قبل أن يفرض الحجاب، فاستأذن على النبي ﷺ وعائشة رضي الله عنها عنده، فقالت له: "يا أصيل، كيف عهدت مكة؟ قال: والله عهدتها قد أخصب جنابها، وابيضت بطحاؤها، وأغدق إذخرها. فقالت: يا أصيل، لا تحزنا"(٢). وفي رواية: "فقال النبي ﷺ: ويها يا أصيل، دع القلوب تَقَرّ"(٣)، والظاهر من الحديث أن عائشة رضي الله عنها -رغم صغر سنها عند مغادرتها مكة- كانت تتحرك مشاعرها نحوها، وتتوق لسماع أخبارها، فلما أثنى عليها أصيل الغفاري رضي الله عنها استوقفته قائلة: "لا تُحْزنّا"، فهذا مثال جليّ على حب الأوطان والانتماء الصادق لها، إلا أن قول النبي ﷺ فيه -والله أعلم-

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل المدينة، باب حدثنا مسدد، ٣/ ٢٣، برقم: ١٨٨٩. والحديث في مسند الإمام أحمد برقم ٢٦٢٤٠ أوضح في الدلالة على أن هذا من قول بلال ﷺ.
(٢) أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار: الأزرقي، ٢/ ١٥٥.
(٣) منتقى من أخبار الأصمعي، الضياء المقدسي١/ ١١٠.

منحىً آخر، وهو ترك الإسهاب في وصف مكة إيثاراً لمصلحة أعظم وهي الاستقرار بالمدينة المنورة والاطمئنان إلى السكنى بها، وحتى لا يخطر ببال أحد من المهاجرين قطع الهجرة والرجوع إلى مكة، وهو ما تحقق للصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا يكرهون الموت بمكة مع حُبّهم لها، لأنهم تركوها وهاجروا لله عز وجل، ولذا قال سعد بن أبي وقاص: "يا رسول الله، أأُخَلَّفُ بعد أصحابي؟"، وهنا دعا رسول الله ﷺ: "اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم، لكن البائس سعد بن خولة رثى له رسول الله ﷺ أن توفي بمكة"(١).

ومما يجدر التوقف عنده ما أورده البيضاوي في معرض شرحه لدعاء النبي ﷺ للمريض: "بِسْمِ اللهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا"(٢) حيث قال: "وقد شهدت المباحث الطبية على أن الريق له مدخل في النضح وتبديل المزاج ، ولتراب الوطن تأثير في حفظ المزاج الأصلي ودفع نكاية المغيرات، ولهذا ذكر في تدبير المسافرين أن المسافر ينبغي أن يستصحب تراب أرضه إن عجز عن استصحاب مائها، حتى إذا ورد ماء غير الماء الذي تعود شربه ووافق مزاجه جعل شيئا منه في سقايته ، ويشرب الماء من رأسه ، ليحفظه عن مضرة الماء الغريب ، ويأمن تغير مزاجه"(٣)، وربما يفهم من هذا أن هنالك ارتباطًا بين الدعاء وخصوصية تراب الوطن، ومثل هذا الفهم فيه نظر لعدة أمور:

أولها: أن المراد بـ (أرضنا) المدينة المنورة أو كل أرض(٤)، وعليه أكثر أهل العلم، وعليه فإن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باب حجة الوداع ٥/ ١٧٨ برقم ٤٤٠٩. والحديث عند البخاري في أكثر من موضع.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الطب، باب رقية النبي ﷺ ٧/ ١٣٣، ٥٧٤٥.
(٣) تحفة الأبرار، للبيضاوي ١/ ٤٢٠.
(٤) انظر: شرح سنن أبي داود لابن رسلان ١٥/ ٦٣٦.

الرقية تصح بتراب المدينة على رأي من قال بالخصوصية، أو بكل تراب أرض يستوطنها يعتلّ فيها الإنسان.

وثانيها: أن هذه المقولة متعارضة مع ما ذهب إليه عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وغيرهما من القول بحرمة إخراج شيء من تراب المسجد الحرام إلى غيره، وكذا تراب المدينة المنورة(١).

وثالثها: أن عبارة البيضاوي تأخذ المنحى الطبي، وقد نبه أبو العباس القرطبي إلى أن المعالجات لابد من التزامها بالقانون الطبي فقال: "وهذا إنَّما يكون عند المعالجة والشروع فيها على قوانينها من مراعاة مقدار التراب والرِّيق وملازمة ذلك في أوقاته. وأمَّا وضع السَّبابة على الأرض فلا يتعلَّق منها بالمرقِي شيء له بالٌ ولا أثر، وإنَّما هذا من باب التَّبرُّك بأسماء الله تعالى وبآثار رسوله ﷺ، وأما الرِّيق ووضع الإصبع وما أشبه ذلك فإمَّا أن يكون ذلك لخاصية فيه، وإمَّا أن يكون ذلك لحكمة إخفاء آثار القدرة بمباشرة الأسباب المعتادة، والله تعالى أعلم"(٢).

وخلاصة الأمر هي أن هذا الحديث إما أنه يختص بتراب المدينة المنورة، ولكن يلحظ أن الأحاديث الواردة في غبار المدينة ضعيفة كما نبه إلى ذلك السيوطي(٣) والألباني(٤). أو أنه محض اقتداء بالنبي ﷺ وعمل بتوجيهه، وهذا على اعتبار أن المراد كلُّ تربة وَطن، والله أعلم.

(١) انظر: مرعاة المصابيح، للمباركفوري ٩/ ٤٧٨.
(٢) المفهم، للقرطبي أبي العباس ٥/ ٥٨٠.
(٣) انظر: الفتح الكبير، للسيوطي ٢/ ٢٤٢.
(٤) انظر: ضعيف الجامع الصغير وزياداته، للألباني، ص ٥٦٩.

المطلب الثالث: الانتماء الوطني في الأنظمة والقوانين

القضايا الكبرى التي تمايز المجتمعات وتحدد مواقف الناس الانتمائية، لا تتولد عن القوانين مباشرة، بل أثبت الواقع ووقائع التاريخ أنه يمر بحلقات عدة.

وفيما يخص الانتماء الوطني نجده يمر بحلقات ثلاث في المجتمع السعودي، ولعل معظم المجتمعات في الدول العربية تشابهه في هذه الحلقات الثلاث:

فهنالك أولاً حَلَقة الأسرة التي تتلقف الإنسان منذ ولادته، وتشرع في غرس المبادئ والأخلاق والدّين فيه، ولا يزال الحال كذلك حتى يجاوز الإنسان مرحلة الحضانة ويصل سِن التمييز.

قد يقال: إن الطفل في هذه المرحلة لا يدرك هذه المعاني الكبيرة. فيجاب عن هذا بأن الطفل في هذه المرحلة يسجل ويحفظ كثيراً مما يشاهد ويسمع، وتنطبع التصرفات التي يشاهدها في ذهنه، ولكنه ما أن يُميز وتتجه به سنوات عمره نحو الرشد يبدأ بتفسير تلك المشاهدات والتصرفات، ويستوعب تلك الكلمات والجمل التي استقرت في ذهنه، عندئذ تكون القيم التي سمعها وتكونت صورتها العملية في ذهنه محل ترحيب، بل ربما تكون هي الأساس التي يتعامل مع الآخرين من خلالها.

وأما الحلقة الثانية، فهي حَلَقة الأقارب والعشيرة والمدرسة، ولها دور كبير في تثبيت قيمة الانتماء التي تشربها الإنسان في صغره، بل يشرع في ممارستها فيحضر المناسبات الوطنية، ويشارك في الأنشطة الوطنية التي ترعاها العشيرة والمدرسة، فتجتمع له في هذه المرحلة المعرفة النظرية والتطبيق العملي.

وأما الحلَقَة الثالثة، فهي حلقة القبيلة، والمعهود في القبائل أن لها نظاماً تلتزم به تجاه القيادة، وتجاه القبائل الأخرى، ومما تلتزم به إذكاء روح الانتماء الوطني، والدفع بأبنائها

وبناتها للاعتزاز بذلك، والإسهام في نشرها حتى تصبح ثقافة مجتمعية سائدة.

ثم يأتي القانون بعد ذلك فيضع الضوابط والمحددات للانتماء الوطني، وهو ما نشاهده في مواد النظام الأساسي للمملكة العربية السعودية، التي منها[١]:

- المادة التاسعة التي أكد فيها النظام الأساسي للحكم على أن الأسرة يربى أفرادها على أساس العقيدة الإسلامية، وما تقتضيه من الولاء والطاعة لله، ولرسوله، ولأولي الأمر، واحترام النظام وتنفيذه، وحب الوطن، والاعتزاز به وبتاريخه المجيد.
- والمادة الثانية عشرة التي شدد فيها على مبدأ تعزيز الوحدة الوطنية، وأنه واجب، وأن الدولة تمنع كل ما يؤدي للفرقة والفتنة والانقسام.
- والمادة الثالثة عشرة التي أكد فيها على أن التعليم يهدف إلى غرس العقيدة الإسلامية في نفوس النشء، وإكسابهم المعارف والمهارات، وتهيئتهم ليكونوا أعضاء نافعين في بناء مجتمعهم، محبين لوطنهم، معتزين بتاريخه[٢].

وبما أن حماية الوطن والذود عن حياضه والتضحية لأجله درجة عُليا في الانتماء الوطني، فقد أولاها النظام عنايته، وتحدث عنها في المادة الثالثة والثلاثين التي بيّنت أن من مهمات الدولة المحافظة على هذا الوطن الحبيب بإنشاء القوات المسلحة، وتجهيزيها من أجل الدفاع عن العقيدة والحرمين الشريفين والمجتمع والوطن.

كما أكد النظام في المادة الرابعة والثلاثين على وجوب الدفاع عن العقيدة الإسلامية

(١) قبيلة المملكة العربية السعودية وشرف الانتماء الوطني. د. محمد بن عبدالله آل عمرو. جريدة الجزيرة الإلكترونية. الثلاثاء ٨ من سبتمبر ٢٠٢٠هـ، على الرابط الإلكتروني:
. https://www.al-jazirah.com/2020/20200908/ar5.htm

(٢) انظر: النظام الأساسي للحكم في المملكة العربية السعودية. الصادر بالأمر الملكي رقم: أ/ ٩٠، بتاريخ: ٢٧/ ٨/ ١٤١٢هـ.

والمجتمع، وأن ذلك واجب على كل مواطن بمقتضى حبه وولائه وانتمائه لهذا الوطن.

المطلب الرابع: مدى توافق قيم الانتماء والولاء الوطني مع عقيدة الإسلام

مما سبق في هذا البحث تأكد للباحث مشروعية الانتماء والولاء الوطني، وأدلة ذلك من الكتاب و السنة، وأنه قيمة ضاربة في أعماق التاريخ، ولم تخل أمة من الأمم منها على تنوع ثقافاتها ومعتقداتها، وأنه لا تعارض بينه وبين الشريعة الإسلامية؛ لأنه داخل ضمن دائرة الانتماء الأكبر إلى الإسلام دينًا وثقافة، ومشروعًا حضاريًّا، وأن جميع أشكال الانتماء المشروع إنما تتكامل فيما بينها، ولا تتعارض من أجل تحقيق الحياة المستقرة المطمئنة لأفراد المجتمع ما لم يتحول هذا الانتماء وهذا الولاء الوطني إلى حمية أو عصبية جاهلية، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ويفهم من هذه الآية أن هذه الأصناف الثمانية من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارات والمساكن مشروعة ما لم تكن أحب في قلب العبد من الله تعالى ومما يرضيه سبحانه، فقوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾ صيغة تقتضي الاشتراك في مشروعية الحب، إلا إذا تعارضت المحابّ، فتقدم محبة الله تعالى على محبة ما سواه، فإن صارت الأوطان حربا على الدين والعقيدة واضطهادا للفرد على هويته الدينية، والفتنة في الدين حاصلة أو متوقعة، وليس له فيها نصير ولا معين ولا ظهير، فإن مفارقة هذا الوطن في هذه الحال مشروعة بل تستحب أو تجب بحسب الأحوال، ولا يتنافى هذا مع محبة الوطن والشعور بالانتماء إليه بطبيعة النشأة، والشوق إلى العودة إليه، كما كان من حال أبي بكر وبلال رضي الله عنهما التي ذكرناها سابقا.

وليأتي الانتماء الوطني واعياً، خالياً من التعصّب الجاهلي، ومنضبطاً بالتوجيهات الشرعية، قال رسول الله ﷺ: "من قتل تحت راية عِمِّيَّةٍ، يدعو عصبية، أو ينصر عصبية، فَقِتْلَةٌ جاهلية"(١).

والراية العِمِّيَّة كما قال ابن الجوزي: "الْأَمر الملبِس لَا يُدرَى مَا وَجهه، قَالَ أَحْمد بن حَنْبَل: هُوَ الْأَمر الْأَعْمَى، كالعصبية، الَّتِي لَا يستبان مَا وَجهَهَا، وَالْمَقْصُود أَنه يُقَاتل لهواه لَا على مُقْتَضى الشَّرْع"(٢).

وتكرر التوجيه النبوي حيال هذا الأمر في حديثٍ رواه حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لَنْ تَفْنَى أُمَّتِي حَتَّى يَظْهَرَ فِيهِمُ التَّمَايُزُ وَالتَّمَايُلُ وَالْمَعَامِعُ"، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَا التَّمَايُزُ؟ قَالَ: "عَصَبِيَّةٌ يُحْدِثُهَا النَّاسُ بَعْدِي فِي الْإِسْلَامِ" فَقُلْتُ: فَمَا التَّمَايُلُ؟ قَالَ: "يَمِيلُ الْقَبِيلُ عَلَى الْقَبِيلِ، فَيَسْتَحِلُّ حُرْمَتَهَا"، قُلْتُ: فَمَا الْمَعَامِعُ؟ قَالَ: "مَسِيرُ الْأَمْصَارِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، تَخْتَلِفُ أَعْنَاقُهَا فِي الْحَرْبِ"(٣).

ورغم التوجيهات النبوية الكريمة، إلا أن تاريخ المسلمين لم يسلم من مثل هذه الأحداث، فوقع جانب كبير مما حذر منه المصطفى ﷺ، فالتنازع القبائلي بين القيسية واليمانية في الأندلس في ابتداء أمرها، ثم احتراب ملوك الطوائف وظهور العصبية البربرية إلى جانب القيسية واليمانية كلها مظاهر لتلك العصبية التي مقتها النبي ﷺ وحذر منها على سبيل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال. وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة ٣/ ١٤٧٨، برقم: ١٨٥٠.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين: ابن الجوزي، ٢/ ٥١.

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن ١/ ٢٣٠، حديث رقم: ٦٤٦. قال الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٦٩: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وخالفه الذهبي فقال: سعيد بن سنان متهم. وقد أكد الأستاذ حمود التويجري ضعف إسناده من جهة، ونبه إلى صحة معناه من جهة أخرى.

التحريم. يقول الأستاذ حمود التويجري: "وهذا الحديث، وإن كان ضعيف الإسناد؛ فقد ظهر مصداقه بما أحدثه الناس من العصبية في الإسلام، ومن هذه العصبية ما يسمى في زماننا بـ (القومية العربية) ، وكذلك ميل القبائل بعضها على بعض، واستحلال بعضهم لحرمة بعض، وكذلك سير الأمصار بعضهم إلى بعض، واختلاف أعناقهم في الحرب؛ كل ذلك قد وقع في هذه الأمة، وهذا مما يشهد لهذا الحديث، ويدل على أن له أصلا. والله أعلم"(١).

(١) انظر: إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة: التويجري، ١/ ٥١.

المبحث الثالث
القيم المعززة للانتماء والولاء والوطني

تعد القيم من الثوابت التي لا تستغني أمّة من الأمم عنها، لأنها الضابط الأخلاقي والسلوكي لأفرادها وجماعاتها، وللانتماء الوطني حظ وافر من تلك القيم المعززة له، والموجهة إلى السلوكات الراقية التي تجعل من هذا الانتماء صادقاً ومتوافقاً مع التوجيهات الشرعية، وبعيداً من علائق الجاهلية والنزغات الشيطانية. وسيتم الحديث عنها من خلال مطالب ثلاثة هي:

المطلب الأول: مصادر قيم الانتماء والولاء الوطني عند المسلمين

تستمد قيم الولاء والانتماء الوطني والاعتزاز به عند المسلمين من عدة مصادر، أهمها القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والإجماع، والقياس، وغير ذلك من القواعد المستفادة والمستنبطة من القرآن والسنة، مضافًا إليها محاسن العادات التي تواطأ على حسنها المجتمع المسلم، وجميل العادات والتقاليد، دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وتظهر دلالة الإجماع على قِيم المواطنة في اتفاق العلماء على مدلول النص الشرعي من الكتاب والسنة، ويأتي القياس ليجعل دائرة الاستفادة من النصوص أوسع وخصوصاً في جانب القيم العَمَلية، وأما العرف الصالح والعادات الحسنة، فهي مصدر لقيم الانتماء كذلك، وذلك استنادا إلى ما صح عن عبدالله بن مسعود ﷺ أنه قال: "... فما رأى المسلمون حسنا، فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئا فهو عند الله سيئ" الحديث[1].

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١/ ٣٧٩، برقم ٣٦٠٠ وإسناده حسن، وأخرجه الحاكم في المستدرك=

المطلب الثاني: وظائف قيم الانتماء والولاء الوطني

إن قيم الانتماء والولاء الوطني مؤثرة غاية التأثير في رقي المجتمعات عندما يتمثلها الناس في واقعهم، وتكون مقوماتها من المصادر السالفة الذكر، بالنظر إلى الأفراد فمن أهم آثارها في الأفراد:

أنها طاقات دافعة للعمل الإيجابي، ومحركات لدوافع السلوك الإيجابي فضلا عن أنها تمثل مرجعية معيارية للسلوك المقبول(١). كما تؤدي دورًا عظيمًا في تشكيل الشخصية وتنميطها، وتحديد هدفها وإطارها المعياري المرجعي الصحيح. وتدفع الفرد إلى تعديل سلوكه، وتحقيق التكيف والتوافق والانسجام مع مجتمعه، والرضا عن النفس، وبذلك يكون الفرد صالحًا محققا لذاته مستعدًا لإصلاح غيره متجاوبًا مع مجتمعه(٢). وكذلك تدفع قيم الولاء والانتماء الفرد لزيادة وعيه بمعتقداته؛ وتساعده على فهم العالم المحيط به، وتوسيع إطاره المرجعي في فهم حياته وعلاقاته، وتعمل على إصلاحه نفسيًا وخلقيًا وضبط شهواته(٣).

وعلى المستوى المجتمعي فإنها تشكل معيارية جمعية عامة، وأحد أنواع الرقابة الداخلية لحركة المجتمع في الحياة، بحيث يستطيع الجميع توجيه سلوكهم وتحديد آمالهم، وتساعدهم على مواجهة التحديات، وتربط عناصر ثقافة المجتمع بعضها ببعض بشكل متناغم متناسق، وتشكل نظرته إلى العالم من حوله، وتحميه من الأثرة المفرطة والنزعات والشهوات الطائشة من أجل تحقيق الأهداف العامة للمجتمع وغاياته الكبرى.

=٣/ ٨٣ برقم ٤٤٦٥، وقال: "حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه". ووافقه الذهبي..

(١) القيم التربوية في القصص القرآني: طهطاوي، ص٤٥.

(٢) القيم الإسلامية والتربية: أبو العينين ، ص ٣٥.

(٣) المرجع السابق.

المطلب الثالث: الحاجة الماسة لتعزيز الانتماء والولاء الوطني

تتأكد الحاجة إلى تعزيز قيم الانتماء والولاء الوطني ولاسيما في عصرنا الحاضر الذي تحول فيه العالم إلى ما يشبه المدينة الواحدة، وتأثر الإنسان المعاصر بالثقافات الوافدة الواردة عليه صباحا ومساء بما تحمله من غث ينافي ديننا وقيمنا وأعرافنا وعاداتنا وتقاليدنا، الأمر الذي يدفعنا دفعا إلى ترسيخ قيمنا الإسلامية الفاضلة حماية لنسيج الأمة ولحمتها وسداها، فإن تعزيز الهوية الوطنية العامة يشكل قوام الوجدان المشترك بين أفراد المجتمع أو الدولة، وهي بالتالي تثمر لدى الأفراد سلوكات إيجابية، يظهر من خلالها مدى حبهم لوطنهم، ومدى انتمائهم وولائهم له. كما أن التأكيد على الميل نحو الجماعة الوطنية بحب وولاء يسهم في تقوية لحمتها وتعزيز أواصرها من تحقيق أهدافها العامة، مما يقوي فيها الولاء والانتماء من خلال التفاعل المشترك، ويمكن تحقيق ذلك من خلال تلمّس الوسائل والأدوات اللازمة لتعزيز الانتماء الوطني، ومن ذلك:

١. تفعيل دور الدين في حياة المجتمع لما له من أثر كبير في ضبط الوجدان العام للفرد والجماعة، وتوجيهه نحو حماية هويته الإسلامية وأرضه وعرضه ودفعه بقوة نحو المحافظة على ذلك ولو كلفه ذلك نفسه وأهله وولده وماله.
٢. إحياء المشروع الحضاري للأمة الإسلامية؛ ليكون ذلك عاملا قويا نحو الاعتزاز والولاء الصادق والانتماء الحقيقي لهذه الأمة.
٣. تعزيز الثقافة الإسلامية كأساس لبناء الهوية والانتماء الوطني.
٤. الاهتمام بالقيم الإسلامية المعززة للترابط الاجتماعي والانتماء الوطني.
٥. تعزيز دور الأسرة في تنمية قيم الانتماء والولاء الوطني لدي أفرادها.

٦. تعزيز دور المدرسة وغيرها من المؤسسات التعليمية كالجامعة وغيرها في تنمية قيم الانتماء والولاء الوطني لدي الطلاب.

٧. تعزيز دور الإعلام في تنمية قيم الانتماء والولاء الوطني.

٨. معالجة العوامل المؤدية إلى ضَعف الانتماء الوطني[١].

(١) انظر: الانتماء للوطن في عصر العولمة. "رؤية إسلامية نقدية". شبكة الألوكة على موقعها، بتاريخ ٢١/ ٥/ ٢٠١٣م–١٢/ ٧/ ١٤٣٧هـ على الرابط الإلكتروني:
https://www.alukah.net/publications_competitions/0/54889

الخاتمة

أكد البحث على مشروعية الانتماء والولاء الوطني، وأنه لا تعارض بينه وبين الشريعة الإسلامية؛ لأنه داخل ضمن دائرة الانتماء الأكبر إلى الإسلام دينًا وثقافة، ومشروعًا حضاريًّا، وأن جميع أشكال الانتماء إنما تتكامل فيما بينها، ولا تتعارض من أجل تحقيق الحياة المستقرة المطمئنة لأفراد المجتمع ما لم يتحول هذا الانتماء وهذا الولاء الوطني إلى حمية أو عصبية جاهلية.

كما أكد على الحاجة إلى تعزيز قيم الانتماء والولاء الوطني ولاسيما في عصرنا الحاضر الذي تقاربت فيه المسافات، وتقاصر الحواجز، وصار الإنسان متلقياً للثقافات شاء أم أبى، ومتأثراً بها، وبخاصة الأجيال الناشئة والشابة، فمن شأن هذا التعزيز أن يثمر لدى الأفراد سلوكات إيجابية، يظهر من خلالها مدى حبهم لوطنهم، ومدى انتمائهم وولائهم له، مع رفضهم وتباعدهم عن كل فكر هدام، أو سلوك هابط أو توجّه مشتت لعرى الأمن والجماعة.

ولعل أهم نتيجة توصلت إليها – في ظني- هي ضرورة تكامل حلقات غرس القيم بما فيها قيمة الانتماء الوطني، فالأسرة تستهدف ما يأمر به النظام، فتسلك مسلكاً تربوياً يحقق ذلك، وكذلك العشرة والمدرسة، وأيضاً القبيلة، فتتصل الحلقات ببعضها، لنجد توجيهات النظام مطبقة دونما عناء أو مشقة.

وقد خرج البحث بمجموعة من التوصيات المهمة لتعزيز الانتماء الوطني لمواجهة سلبيات العولمة، تمثَّل أهمها فيما يلي:

١. ضرورة إشباع حاجات الفرد المادية والمعنوية لتقوية ارتباط الفرد بوطنه وسَعيه إلى استمرار تقدُّمه واستقراره.
٢. ضرورة ربط الفرد بالقيم السامية الدينية والخلقية ومحاسن التقاليد والأعراف

والعادات، في إطار وسطية الإسلام وعقيدته السمحة، بعيدًا عن الغلو والتشدد، وعدم الأخذ بالمفاهيم الخاطئة.

٣. ضرورة إحياء الرجوع إلى الشريعة الإسلامية، ومعرفة مدى مشروعية حب الوطن والانتماء إليه والولاء له؛ لأن دور الدين في حياة المجتمع أساسي في تعزيز تماسُكه وانتماء أفراده إليه.

٤. ضرورة تعزيز الثقافة الإسلامية كأساس لبناء الهوية والانتماء الوطني؛ فالمحافظة على الذاتية الثقافية الإسلامية في مواجهة محاولات العولمة لتحويل جميع الثقافات إلى نمط عالمي موحدٍ ضرورةٌ ملحة لتحصين الهوية الثقافية وبناء الانتماء الوطني؛ حيث تضطلع الثقافة الإسلامية بوظيفة مؤثرة ورائدة في بناء الهوية الوطنية، وصياغتها وَفق تعاليم الإسلام، وقيمه السامية.

٥. ضرورة معالجة العوامل المؤدية إلى ضَعف الانتماء الوطني، فلتعزيز مشاعر الانتماء والولاء الوطني لدى أفراد المجتمع يجب العمل على علاج كل ما يؤدي إلى إضعاف هذه المشاعر لدى الأفراد والقضاء عليه؛ حيث يتأثر الانتماء بالعديد من المؤثرات الخارجية التي تقوم بتقويته أو إضعافه، وحتى نستطيع أن نبني انتماءً إيجابيًّا يقوم ببناء الفرد بصورة إيجابية، وبالتالي يؤدي إلى بناء المجتمع يجب أن نسعى لتجنيب الفرد المؤثرات السلبية التي يمكن أن تعمل على إضعاف انتمائه للمجتمع، بنفس درجة سعينا لتقوية الجوانب التي تعمل على تعزيز الانتماء وتقويته.

تنويه: البحث مدعوم من قبل عمادة البحث العلمي بجامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز تحت رقم ٢٠٠٢٣/ ٠٢ / ٢٠٢٢.

المراجع

الابتهاج بتطريز الديباج، التكروري أبو العباس أحمد بابا، عناية عبدالحميد الهرامة، ط٢، طرابلس، ليبيا، درا الكاتب، ٢٠٠٠م.

إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة: التويجري، حمود بن عبد الله بن حمود، ط٢، الرياض، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ.

أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار، الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، ط٣، بيروت، دار الأندلس، ١٤٠٣هـ..

إسهام أساليب المعاملة الوالدية كما يدركها الأبناء في التنبؤ بالانماء الوطني لدى طلاب الجامعة: طه أحمد المستكاوي، ودينا سالم سليمان، وسارة مصطفى علي، مجلة دراسات في مجال الإرشاد النفسي والتربوي، كلية التربية، جامعة أسيوط، المجلد الثامن – العدد الثامن – يناير ٢٠٢٠م.

أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن، لابن الأحمر إسماعيل بن يوسف النصري، تحقيق د. محمد الداية، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٦م.

الانتماء الوطني رؤية شرعية، مقالة لسالم بن عميران، مجلة البيان، العدد ٣٣٨ شوال ١٤٣٦هـ، أغسطس، ٢٠١٥م، منشورة على الرابط:https://2u.pw/sEwY8 .

الانتماء إلى الوطن وأثره في حماية الشباب من الانحراف، للدكتور بدر علي العبدالقادر، بحث منشور في السجل العلمي لمؤتمر واجب الجامعات السعودية وأثرها في حماية الشباب من الجماعات والأحزاب والانحراف، المقام في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١١-١٢ ٥/ ١٤٣٩هـ، المجلد الخامس، ص ١٥٥٥-١٥٩٣.

الانتماء للوطن في عصر العولمة. "رؤية إسلامية نقدية". شبكة الألوكة على موقعها، بتاريخ ٢١/ ٥/ ٢٠١٣م–١٢/ ٧/ ١٤٣٧هـ على الرابط:

https://www.alukah.net/publications_competitions/0/54889

الانتماء والولاء الوطني في الكتاب والسنة النبوية، بحث للدكتور الكراسنة سميح وآخرين، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، ج٦، عدد٣، عام ١٤٣١هـ ص٤٩-٧٢.

بحث عن الانتماء للوطن، مقالة لبشار طميزي، منشورة على الرابط

https://2u.pw/cbWGZ.

تاريخ الطبري وصلته: الطبري، محمد بن جرير، وصلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، ط٢، بيروت، دار التراث، ١٣٨٧هـ.

التأصيل الشرعي لمفهوم الوحدة والمواطنة من منظور إسلامي: سلامة بن مخيضير بن مسفر الحجيلي، المجلة العلمية بكلية التربية جامعة أسيوط، مجلد ٣٤، العدد: ٣، مارس، ٢٠١٨م.

تصحيح الفصيح وشرحه: ابن درستويه، أَبُو محمد عبد الله بن جعفر، تحقيق: محمد بدوي المختون، د. ط، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤١٩هـ.

التعريفات الفقهية، البركتي، محمد عميم، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ.

التعريفات، الجرجاني، علي بن محمد، تحقيق جماعة من العلماء، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.

تفسير السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، تحقيق عبدالرحمن اللويحق، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ

تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، تحقيق ابن الخطيب، ط١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٦م.

تهذيب اللغة: الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد بن الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م.

دورِ (إذاعة Amen F.M.) في تعزيز الانتماء الوطني لدى الطلبة الجامعيين – جامعة الشرق الأوسط أنموذجاً، عبد أحمد حمايل، رسالة ماجستير، كلية الإعلام، جامعة الشرق الأوسط، الأردن، ٢٠١١م.

ديوان امرئ القيس، عناية عبدالرحمن المصطاوي، ط٢، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٥هـ.

ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، ط٢، القاهرة، دار المعارف، د.ت.

ربيع الأبرار ونصوص الأخيار: جار الله الزمخشري، ط١، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٤١٢هـ.

رسائل الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، د.ط، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ.

الزاهر في معنى كلمات الناس، ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، تحقيق: حاتم صالح الضامن، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٢هـ.

سير أعلام النبلاء، الذهبي محمد بن أحمد، تحقيق مجموعة من الباحثين بإشراف شعيب الأرناؤوط، ط٣، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ.

شرح المعلقات السبع: الزوزني، حسين بن أحمد، ط١، بيروت، دار احياء التراث العربي، ١٤٢٣هـ.

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا، ط٤، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ.

الصحة النفسية والإرشاد النفسى: الطواب، سيد محمود، د.ط، الاسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٨م.

صحيح البخاري: البخاري، محمد بن إسماعيل، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، حلب، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢هـ.

الصداقة والصديق: التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، ط١، بيروت دار الفكر المعاصر، ودمشق ودار الفكر، ١٤١٩هـ.

ظاهرة الانتماء: فيصل عبد الرؤوف فياض، أمد للإعلام، مدونة على الإنترنت، على الرابط: https://2u.pw/LpWWl.

العدة في أصول الفقه: ابن الفراء أبو يعلى القاضي، محمد بن الحسين، حققه وعلق عليه: أحمد بن علي بن سير المباركي، ط٢، ط.ن، د.م، ١٤١٠هـ.

العلاقة بين إدارة الصف وفقًا لنموذج جلاسر والاتجاهات نحو تعلم اللغة الإنجليزية لدى طلاب المرحلة المتوسطة بمدينة حائل بالمملكة العربية السعودية: سلطان بن سليمان فالح العنزي، مجلة العلوم التربوية، مصر، مجلد ٢، العدد ٢٥، العام ٢٠١٧م، ص٢٠٨-٢٣٢.

عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي، تحقيق: الدكتور نزار رضا، د.ط، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.

قبيلة المملكة العربية السعودية وشرف الانتماء الوطني. محمد بن عبدالله آل عمرو. جريدة الجزيرة الإلكترونية. الثلاثاء ٨/ ٩/ ٢٠٢٠هـ، على الرابط الإلكتروني:

https://www.al-jazirah.com/2020/20200908/ar5.htm .

قواعد الأصول ومعاقد الفصول مختصر تحقيق الأمل في علمي الأصول والجدل: القطيعي، عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي الحنبلي، ط١، الكويت: دار الركائز للنشر والتوزيع، الرياض: دار أطلس الخضراء للنشر والتوزيع، ١٤٣٩ هـ.

القيم الإسلامية والتربية، المدينة المنورة، أبو العينين، علي خليل، د.ط، القاهرة، مكتبة إبراهيم حلبي، ١٩٨٨م.

القيم التربوية في القصص القرآني: طهطاوي، سيد أحمد، د.ط، مصر، دار الفكر العربي، ١٩٩٦م.

كتاب العين: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، ط١، القاهرة، دار ومكتبة الهلال، د.ت.

كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، تحقيق: علي حسين البواب، الرياض، دار الوطن، د.ت.

الكليات، الكفوي، أيوب بن موسى، تحقيق عدنان درويش ومحمد البصري، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ.

المحبر: الهاشمي، محمد بن حبيب البغدادي، تحقيق: إيلزة ليختن شتيتر، د.ط، بيروت، دار الآفاق الجديدة، د.ت.

المخصص: ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، تحقيق خليل إبراهم جفال، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ.

المدينة الفاضلة وكابوس الديستوبيا، أحمد محمد الشربيني، مقال في مجلة الإبداع الإلكترونية، على الرابط الإلكتروني: https://www.arageek.com/ibda3world/dystopia

مرعاة المصابيح، للمباركفوري عبيدالله بن محمد، ط٣، الهند، إدارة البحوث العلمية بالجامعة السلفية، ١٤٠٤هـ.

مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، بيروت، دار الرسالة، ١٤٢١هـ.

مصطلح المدينة الفاضلة: Spbhi Ag، مقال على موقع ECONOMIC STARS، على الرابط الإلكتروني: https://economicstars.com/2021/01/01.

معاني القرآن، الفراء، يحي بن زياد، تحقيق أحمد النجاتي وآخرون، ط١، مصر، دار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.

معجم البلدان الحموي: ياقوت بن عبد الله الرومي، ط٢، بيروت، دار صادر، ١٩٩٥م.

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: البكري، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، ط٣، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٣ هـ.

المفهم، للقرطبي أبي العباس أحمد بن عمر، تحقيق محيي الدين مستو وآخرون، ط١، دمشق وبيروت، دار ابن كثير، ١٤١٧هـ.

مقاييس اللغة: ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، دمشق دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

منتقى من أخبار الأصمعي: الضياء المقدسي: عبد الله بن أحمد بن ربيعة، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، ط١، دمشق، دار طلاس، ١٩٨٧م.

النظام الأساسي للحكم في المملكة العربية السعودية. الصادر بالأمر الملكي أمر ملكي رقم: أ/ ٩٠، بتاريخ: ٢٧/ ٨/ ١٤١٢هـ.

الهوية الوطنية والانتماء، د. محمد قاسم عبدالله، (مداد) مركز دمشق للأبحاث والدراسات. منشور على الرابط: https://2u.pw/49pbu .